خطوةُ دفءٍ

كان البرد ينقش أحلامَه بالإِبَرِ على جسمي، وكنتُ أقفُ في العراءِ والظَّلامِ حارسًا على أرضي، فبالأمس سُرِقَتْ بقرةٌ ولم نجدْ لها أثرًا، وكأنَّ مَنْ سرقها أكلَها حيَّةً في مكانِها، لذلك أطفأتُ مُوَلِّدَ الكهرباءِ ولم أشعلْ نارًا أمام المَعْلَفِ وسط الصحراء المترامية التي تجاهد كي تتغلَّبَ على نفسها وتُخْرِجَ ما في أرحامِها من خضرةٍ وحياةٍ. قلتُ:

- فليكنْ جزء من إعمارِ الأرضِ على يدي، فلتكنْ هذه الرمالُ خضراءَ كما أرادتْ، فليكنْ هذا الموتُ حياةً، فلأكنْ أنا هنا أتركُ بصمتي على أرضٍ تحنُّ إلى أُنْس البَشَرِ.

وبالرغم من أنَّني لم أستطع أن أفهمَ كيف يستحلُّ أحدٌ عَرَقَ سنينَ، أخذتُ حذري وربضتُ له أمام المعلف. فمَنْ جاء معتديًا سأُرْدِيه قتيلًا لتبتلعَه الأرضُ كما ابتلعَ هو البقرةَ.

لم تستطعْ أفكاري وفورانُ دمي أن يطردَا البردَ أو على الأقل يجعلاه يتراجع قليلًا. من بعيدٍ، أبصرتُ جَارِي يُشْعِلُ نارًا بجانب بِئْرِه ليراقبَ أيةَّ خطوةٍ غريبةٍ أو يتسمَّعَ صوتَ حيوانٍ خبيثٍ. وبالرغم من أنَّ النارَ كانت تبعدُ عنِّي ربعَ ساعةٍ على الأقلِّ، بدأ الدفءُ يتسلَّلُ إلى جسمي إلى أن تمكَّنَ من البردِ وأراده قتيلًا.

١ ديسمبر ٢٠١١